

بسم الله الرحمن الرحيم

## ترجمة عبد الله نديم أفندي

هو عبد الله بن مصباح بن إبراهيم، الأديب الألمعي، والخطيب المفوه، نادرة عصره، وأعجوبة دهره. ولد أبوه ببلدة الطيبة بمديرية الشرقية في شهر ذي الحجة سنة ١٢٣٤، ثم انتقل إلى ثغر الإسكندرية، فكان في مبتدأ أمره نجازًا للسفن بدار الصناعة، ثم اتخذ له مخبزًا لصنع الخبز، ومات بالقاهرة في ٤ رجب سنة ١٣١٠. وولد المترجم بالثغر المذكور في عاشر ذي الحجة سنة ١٢٦١ ونشأ في قلة من العيش، ومالت نفسه إلى الأدب، فاشتغل به واسترشد من أهله، وطالع كتبه، وحضر دروس الشيوخ بمسجد الشيخ إبراهيم باشا. وكان قليل الاعتناء بالطلب، غير مواظب على الدرس، إلا أن الله وهبه ملكة عجيبة وذكاء مفرطًا، فبرع في الفنون الأدبية، وكتب وترسل ونظم الشعر والزجل، وطارح الإخوان، وناظر الأقران. ثم بدا له أن يتعلم صناعة للكسب، فتعلم فن الإشارات البرقية، واستخدم في مكتب البرق بينها العسل، ثم نقل إلى مكتب القصر العالي، سكن والده الخديو أيام ولاية ابنها إسماعيل باشا، وبقي به مدة عرف فيها كثيرًا من أدباء القاهرة وشعرائها، مثل الأمير محمود سامي باشا البارودي، ومحمود أفندي صفوت الساعاتي، والشيخ أحمد وهبي. ثم غضب عليه خليل أغا؛ أغا القصر، وكان في سطوة لم يبلغها كافور الإخشيدي، فأمر بضربه وفصله، فضاقت به الحيل ورقت حاله، حتى توصل إلى الشيخ أبي

سعدة عمدة بداوي بمديرية الدقهلية، وأقام عنده يقرئ أولاده، ثم تشاحنا وافترقا على بغضاء. واتصل بالسيد محمود الغرقاوي، أحد أعيان التجار بالمنصورة، فأحسن منزله، وفتح له حانوتًا لبيع المناديل وما أشبهها؛ فكانت نهاية أمره أن بدد المكسب ورأس المال، وجعل يجوب البلاد وافدًا على أكابرها، فيكرمون وفادته ويهشون لمقدمه؛ لما رزقه من طلاقة اللسان، وخفة الروح، وسرعة خاطر في النظم والنثر، فيطوف ما يطوف ثم يأوي إلى دار الغرقاوي بالمنصورة، إلى أن ورد طنندتا سنة ١٢٩٣، واتصل بشاهين باشا كنج مفتش الوجه البحري إذ ذاك، ولاتصاله به سبب لا بأس من ذكره: وهو أن الباشا المذكور كان بينه وبين الشيخ محمد الجندي أحد العلماء بالمسجد الأحمدي صحبة وتزاور، وكان الشيخ يتعشق غلامًا حلاقًا، مليح الشكل، حسن الصوت، فأمره مرة أن يغني بحضرة الباشا، فغنى بقول المترجم:

|                               |                               |
|-------------------------------|-------------------------------|
| سلوه عن الأرواح فهي ملاعبه    | وكفوا إذا سل المهند حاجبه     |
| وعودوا إذا نامت أرقام شعره    | وولوا إذا دبّت إليكم عقاريه   |
| ولا تذكروا الأشباح بالله عنده | فلو أتلف الأرواح من ذا يطالبه |
| أراه بعيني والدموع تكاتبه     | ويحجب عني والفؤاد يراقبه      |
| فهل حاجة تدني الحبيب لصبه     | سوى زفرة تشني الحشا وتجاذبه   |
| فلا أنا ممن يتقيه حبيبه       | ولا أنا ممن بالصدود يعاتبه    |
| ولو أن طرفي أرسل الدمع مرة    | سفيرًا لقلبي ما توالى كتابه   |

وكان كثيرًا ما يتغنى بها، فطرب الباشا طربًا شديدًا، واستظرف قائل الأبيات وتمنى رؤيته، فأرسلوا له بالحضور. فلما حضر إلى طنندتا

وواجهه، استقبح صورته، إلا أنه أعجبه ظرفه وأدبه، ومال إليه، فاتخذه نديمًا لا يمل، ورفيقًا حيث حلّ. فلما استقرت به النوى وملاّ يده من الباشا، استعداه على أبي سعدة الذي كان يقرئ أطفاله، وادعى أنه أحر له ثلاثين دينارًا من أجره التعليم، فأمر الباشا بإشخاصه إلى طنطنتا، وألزمه أن يدفع للمترجم مائة، فدفعها عن يد وهو صاغر. وكان مجلس شاهين باشا محط رحال الأدباء ومنتجع الشعراء والندماء، لا يخلو من مطارحات أدبية، ومساجلات شعرية، وللمترجم بينهم المقام الأعلى، والقدر المعلى. وحسبك ما وقع له مع طائفة (الأدبائية) وهم مشهورون بالقطر المصري يستجدون الناس في الطرق بإنشاد الأزجال والضرب على الطبل، وأغلب أزجالهم مرتجلة في مقتضى الحال، فكان للمترجم معهم يوم مشهود، ذكره في مجلة الأستاذ ومنها نقلناه. قال:

«اتفق لي أنني كنت بمولد سيدي أحمد البدوي رضي الله تعالى عنه سنة ١٢٩٤ هجرية، وكان معي السيد علي أبو النصر والشيخ رمضان حلاوة والسيد محمد قاسم والشيخ أحمد أبو الفرج الدمهوري، فجلسنا على قهوة الصباغ نتفرج على أديب وقف يناظر آخر، فلما فطن أحدهما لانتقادنا عليهما استلفت أخاه إلينا وخصانا بالكلام، فأخذنا يمدحنانا واحدًا فواحدًا، إلى أن جاء دورهما إليّ، فقال أحدهما يخاطبني:

أنعم بقرشك يا جندي      وإلا اكسنا أمال يا أفندي  
إلا أنا وحياتك عندي      بقى لي شهرين طول جيعان

فقلت على سبيل المزح معه:

أما الفلوس أنا مديشي وأنت تقول لي ما مشيشي  
يطلع عليّ حشيشي أقوم أملص لك لودان

ثم أخذنا نتبادل الكلام نحو ساعة، حتى غلبا عند ما فرغ محفوظهما، فلما قمنا وتوجهنا إلى منزل المرحوم شاهين باشا وكنا نازلين عنده جميعاً، أخبره السيد علي أبو النصر بما كان منى مع الأديبين، فلما أصبحنا استدعى شاهين باشا شيخ الأدبية وطلب منه أن يستحضر أمهر الأدبية عنده، ووعد أنه إن غلبوني يعطهم ألف قرش وإن غلبتهم يضرب كل واحد منهم عشرين كرابجاً، فرضي بذلك. واستحضر الشيخ داود والحاج إسماعيل الشهيرين بعمل الرجل وإنشاده ارتجالاً في أي غرض، واستحضر معهما ستة من أشهر الحفظة المقتدرين على الارتجال أيضاً، وعقد الباشا لذلك مجلساً أمام بيته بطنطا وأجلسني بينه وبين المرحوم جعفر باشا مظهر. وقد وقف الناس ألوفاً والعساكر تدفعهم عنا، ثم ابتدأ الشيخ فقال:

أول كلامي حمد لله ثم الصلاة على الهادي  
ماذا تريد يا عبد الله قدام أميرنا وأسايادي

فقلت:

إنني أريد أحمد ربي بعد الصلاة على المختار  
وإن كنت تطمع في أدبي أسمعك حسن الأشعار

فقال:

دعنا من الأدب المشهور وادخل بنا باب الدعك

ندخل على أسيادنا بسرور      ونغنم الخير والبركه

فقلت:

هيا احتكم في البحر وشوف      فن النديم ولا فنك  
دلوقت تسمع يا متحوف      أحسن أدب وحياة دفنك

فقال: هات مدح في الحضرة على قد:

تعمل عمايلك يا منصان      يا أبو الشفيفة العسلية  
يا صاحب الحجل الرنان      ودي الأمور الحيلية  
ماذا تريد من دي الولهان      قل لي واسعف  
أحسن أنا من خمر الحان      قصدي أرشف  
وإن كنت تسمع يا أبو الخير      يبقى الوصال الدوا ليه

فقلت:

المجلس العالي محمود      فيه الأمارا والأعيان  
واليوم دا يوم مشهود      خلعت عليه حلة إحسان  
شاهين باشا فيه موجود      حظوا زهرا  
أما المدير هذا المسعود      جعفر مظهر  
فإنه في الناس معدود      من ضمن أرباب العرفان

(دور)

مجلس عليه حسن مهابه      كأنه مجلس سلطان  
والحاضرين أهل نجابه      وينقصدوا قول الإنسان

اترك بقى شرب الغايبه  
وانشد نسمع  
وان كان تغنى بربابه  
تطرب مجمع  
حسن الكلام مثل سحابه  
تمطر على شجر البستان

فقال:

القصد منك يا نديمنا  
تعمل زجل هيلسه بيله  
إلا أنت دلوقت غريمنا  
قصدي احدفك بالقلقيله  
وان كنت تجهل تقريمنا  
اسأل عننا  
إوعا تعيب في تكليمنا  
واحدر مننا  
أحسن أوديك لعظيمنا  
يشيك ألفين شيله

فقلت:

انتا صغار لسه نونو  
وفي الزجل منتش مجدع  
اتبع نديم تلقى فنونو  
تأتيك من المعنى الأبدع  
أما عظيمك وجنونو  
ياكل نفسه  
وان كان يعارض بمجونو  
يطلب عكسه  
لأن فني وشجونو  
لكل متعنظ يردع

وبعد أن دار الكلام بيني وبينه في كثير من هذا الوزن، قام الشيخ داود

وقال:

قصدي أقول كلاما يحكي لضمات الزهور هات اشجنا بنظام

من فن كان وكان

ادخل بنا لمعان كالبكر من خلف الستور في قلب متحل

## في النظم بالإتقان

فقلت:

|                 |                       |                   |
|-----------------|-----------------------|-------------------|
| واعقل نصيحة حبر | من طيه كل سرور        | اسمع كلام نديم    |
|                 | يدعوك للعرفان         |                   |
| واصفح فكل صفوح  | لو كان من أوهي الطيور | لا تستخف          |
|                 | يعلو على الأعيان      |                   |
|                 | واحفظ مودة حر         | واخش اللثيم دواما |
|                 | في عهده ما خان        |                   |
| واصحب أخي شريفا | بنزلك عن سرج الظهور   | لا تصطحب بوضيع    |
|                 | واطلب رضا الإخوان     |                   |
| واسمع سؤال فقير | إن كنت ضيفا في العبور | وانزل بيت كريم    |
|                 | أودى به الحرمان       |                   |
| إن كان يعجب هذا | قد جرب الدهر الجسور   | هذي نصيحة حر      |
|                 | أولا فيخذ تبيان       |                   |
| والفكر فكر ذكي  | إن قلدت زانت النحور   | فالبحر بحر لآل    |
|                 | لا يعرف النسيان       |                   |

فأعرض عن كان وكان عجزًا منه، وقال: هات فخرا على قد

|                        |                  |
|------------------------|------------------|
| هجبت للمشتاق وجدا      | يا صبا نجد ورامه |
| ما اشتكى في الليل شهدا | كل صب في غرامه   |
| ذقت في التعذيب شهدا    | عنفوني عذبوني    |

كل أحشائي وقلبي

والهوى أحرق ضرامه

فقلت:

والغبني يفخر بماله

فخر مثلي في بيانه

فالذكي حسنو كماله

والأدب أحسن صفاتي

والغلام مجده جماله

واللييب يظهر بعلمه

غير محمود المآثر

كل قول المرء يفنى

فقال:

تضحك الشيخ العيسوس

فخر مثلي نكايبت

واشرب القول بالكؤوس

الحس المعني برجلي

واتناسني بالفلوس

لا تلم من قال حظي

ليس في النحو مفاخر

لا تقل زيد وعمرو

فقلت:

والجعيدي والحرامسي

الفلوس حظ المفلس

لطفها في العقل نامي

والعلوم روض الأكابر

مالها دخل ف كلامي

والمضاحك والمساخر

مسخرة للمجد خاسر

كل مضحك بين قومه

فقال:

عند محبوب وحنان

ساعة الحظ وحيده

بالمعاني والبيان

لا أبالي يوم أنسى

تملا البيت بالأوان  
مجمع السدنيا ولاخر

منتهى قصدي فلسوس  
إن كيسي إن كيسي

فقلت:

يا دود اسمع وفكر  
في العلوم فاطلب ويكر  
فامش بين الناس وذكر  
بل ترى المجموع شاكر

كل ما في الكيس يفارق  
والفخار والمجد كلو  
وإن تكن شيخ حق عالم  
تحى كل الناس بعلمك

وبعد مبادلة الكلام في هذا الوزن نحو نصف ساعة، قال: هات غزلاً

على قد:

في جنب بستان الأمير  
أحسن يبرطع في الحمير  
وقت السفر في الهجير  
أحسن ما تمشي على القدم

مدود حمارك مطرحو في الغيط  
وإن كان يجي لك لدارك اربطو في  
وإن كان مكسر فإنه يمنعك م الميط  
إوعا حمارك يا فتى إوعاه

فقلت:

في حسنك الزاهسي النضير  
تجرى عليه كالغدير  
بين الكراسي والسرير  
من يستطع من يصبر

من يوم عرفتك والفؤاد ولهان  
والخد من دمع العيون ريان  
أبيت ليلي بالأرق سهران  
وكل وردي في الدجى آه آه

(دور)

قلبي المعذب في لهيب الخدود      والوجد في الأحشا جحيم  
 بالله من أوراك باب الصدود      لقتل مـضناك العـديم  
 أين الوفا يا منيتي بالعود      ورقة القلب الرحيم  
 أواه من نار الجفا أواه      لو يعشق الريم يعذر

(دور)

قد كان في سعد السعد خدام      لما التقينا في الطريق  
 وقلت بالحاجب أروح قدام      وأنت ورايا يا صديق  
 فصرت أنظر للقوام القوام      وعادل القـد الرشيق  
 حتى ملكت الروح واروحاه      لو يرجع اليوم ينظر

(دور)

قال المدلع عاشقي ما الحال      جفني جرح منك الفؤاد  
 كم من شجى ملك سباه الحال      حتى غدا خصم الرقاد  
 قلت ارحموا من في التصابي مال      عن كل أبواب الرشاد  
 قال إن ترم مني الوصال وصفاه      هات اليمين الأكبر

ثم طلبت منه أن يأتي باليمين من هذا الوزن فوقف، فقصدت الحاج  
 إسماعيل فوقف، فطلبت من الستة فوقفوا، فقال المرحوم شاهين باشا:  
 نحسبها لك واحدة. ثم قال الشيخ: هات غزلاً بمعنى بديع على قد:

أهيف رشقني بقوام      مثل المران      والوجد عذبني بناره

فقلت له: أقول تحميلة، وتقولون أخرى من جنسها. فقال: هات.

فقلت:

يا أهل الصبابا يا عشاق سلوا المشتاق فالعشق ما له غير أهله

فوقف الجميع، ولم يستطع واحد منهم الدخول معي في هذا المضيق.  
فقلت ومشيت إلى آخر الأدوار الآتية:

|                                 |              |                        |
|---------------------------------|--------------|------------------------|
| أشكو إليكم أحزاني               | بل هجراني    | من أهيف صادني نبهه     |
| أهيف بنظره في خده               | خدني عبده    | وجت سقامي تشهد له      |
| وأدمعي نزلت تجري                | تنظر صدى     | رأت فؤادي بيرقص له     |
| قالت لو أتلقت عيوني             | قال سيبوني   | سيد الملاح يعرف شغله   |
| ما دمت إني في رقه               | ياخذ حقه     | وإن مال يعتقني من أصله |
| أنا خديم ولأ أكثر               | الله أكبر    | العشق ما ينكر فضله     |
| العشق ترياق الأرواح             | ويا الأشباح  | ونا الذي طاب لي نهله   |
| ما يعرف العشق الأجلاف           | ياهل الأنصاف | ما للعدول يكثر عزله    |
| عاقل رأى مجنون يشرب             | حتى يطرب     | فراح شعوره مع عقله     |
| ومال لعدلي يتفرج                | بل يدرج      | للعشق لما حان قتله     |
| ظن الغرام قصعة فته              | فوقها حتته   | من لحم قد طاب له أكله  |
| لما رآه سلب الأبواب خاف الأسباب |              | وراح يعضعض في نعله     |
| وصرت وحدي متهني                 | أفضل أغني    | للحب إن شخسح حجله      |
| أرعى النجوم والنار تكوي         | قلبي المشوي  | والوجد كتفني بحبله     |
| قد بعث روعي للفتان              | من غير أثمان | وبعت ملكي من أجله      |

كيف الخلاص والقلب كسير والصب أسير والجفن يجرحني بنصله  
 والشهد في ثغر المحبوب هو المطلوب لكن أخاف قرصة نحله  
 خالو يلوح كالشمسية في الظهرية والخذ نايم في ظله  
 عزمت وجدي يتعشى جو الأحشا فجه بخيله مع رجله  
 والصدر وسع له النادي يا أسيادي والكبد قامت تطبخ له  
 والعين كبت خمرتها من فرحتها والقلب قابلنا بطبله  
 قعد وربع في صدري والنار تجري مثل الصواريخ من حوله  
 لما رأى روحي وجدي أتلف كبدي بعث رسالة مع رسله  
 يقول يا مسكين مالك بين حالك عسى يكون عندي حله  
 فقلت يا سيدي عبدك من نار خدك حرق اللهب جسمه كله  
 أخذت حبيب قلبي النخوة بعد القسوة وجا يغالني بدله  
 خطر ولكن في قلبي بهجة لبي وجاد لمسكينو بوصله  
 من فرحتي هرولت أبكي من غير ما شكى والدمع من كتر وبله  
 حركت قلبه للرحمة من دي الفحمة فجاد بياسمينو وفله  
 فقلت أحبيت الفاني يا إنساني الله يجازيك بفضله  
 وكان ما يرجو للعاشق غير الفاسق والسر لا يحسن نقله

وإلى هنا صفق الباشا والحاضرون، ثم عدنا للزجل المعتاد بما يطول  
 ذكره، فإن الشيخ رمضان كتب من زجل هذا المجلس خمسة كراريس،  
 وكله محفوظ عندنا لم يضع منه شيء. وقد استمرت المناظرة ثلاث  
 ساعات». انتهى ما نقلته من الأستاذ، ولقد سألت بعض من حضر هذا

المجلس عما كتبه المترجم، فأنكره، وأخبرني أنه تعالى فيما كتب، وذكر  
أناساً لم يكونوا حاضريه، والله تعالى أعلم.

ثم اتصل المترجم بالبيك التتونجي فجعله وكيلاً على ضياعه، وما زال  
حتى لحق بالإسكندرية مسقط رأسه، ومنبت غرسه، وكان منه ما سنقصه  
عليك.

تلك خلاصة ترجمته في أول أمره، ومبتدأ خبره. وكان القطر المصري  
في تلك الأثناء في اضطراب وهرج ومرج من اختلال الأحوال وفساد  
الحكام واعتلاء الإفرنج على الأهلين، وقد سئم الناس حكم إسماعيل  
باشا وتمنوا زوال دولته. فلما وفد المترجم على الثغر رأى لفيقاً من  
الشبان ألفوا جمعية سموها «بمصر الفتاة» يتآمرون فيها سرّاً خوفاً من  
بطش الخديو، فعرف منهم البعض، واشتغل بالكتابة في صحف الأخبار،  
فأعجب الكتاب بمقالاته واقتدوا به في تحسين الإنشاء، وكان سقيماً  
منحطاً في ذلك العهد. ثم سعى مع جمع من الأدباء فألفوا جمعية سموها  
«بالجمعية الخيرية الإسلامية» سنة ١٢٩٦ آخر سني إسماعيل باشا في  
الحكم، وجعلوه مدير مدرستها، ثم عزل الخديو وتولى ابنه توفيق باشا؛  
ففرح الناس وظنوا انفراج الأزمة، وجد المترجم واجتهد في إنجاح مسعاه  
في الجمعية، حتى حمل الخديو على زيارة مدرستها، فزارها يوم امتحان  
تلاميذها، وجعلها في حماية ولي عهده عباس بيك، وأنعم لهم بالمدرسة  
البحرية يدرسون بها، وأجروا عليها من الحكومة مائتين وخمسين ديناراً  
في السنة مساعدة. وطفق المترجم يؤلف القلوب ويحض الأهلين على

الالتئام بالمقالات والخطب ينفثها قلمه ولسانه، وألف قصة سماها: «الوطن وطالع التوفيق» وأخرى سماها: «العرب» شرح فيهما ما كانت عليه حالة القطر وما طرأ عليه، ثم مثلهما هو وتلاميذه بأحد ملاعب الشجر بحضور الخديو، فكان لهما تأثير كبير في النفوس، واشتهر المترجم وعلا كعبه، ولهج الناس بذكره، ثم طرأ فساد على الجمعية نسبوه إليه فانفصل منها، وكان شرع في إنشاء صحيفة سماها «التنكيث والتبكيث» مزج فيها الهزل بالجد؛ ظهر أول عدد منها في ٨ رجب سنة ١٢٩٨، وظهر في أثناء ذلك وميض الثورة العرابية من خلل الرماد، فوافقت هوى في نفس المترجم لميله إلى الشهرة وبعد الصيت، فضموه إليهم وشدوا أزرهم به، فملا صحيفته بمحامدهم، ودعا إلى القيام بناصرهم، وخطب الخطب المهيجة، ونظم القصائد الحماسية، وندب الوطن ورثاء، وحض على الاجتماع والتكاتف ونبذ أضراليل الإفرنج؛ فأثرت قائلته في النفوس وأشربتها القلوب، وادعى الشرف، وانتسب إلى الإمام الحسن السبط رضي الله عنه، والله أعلم بتلك النسبة، فقد رأيت كثيرين ممن عرفوه ينكرونها. ثم أوقف صحيفته بعد أن ظهر منها ثمانية عشر عددًا آخرها تاريخه ٢٣ ذي القعدة سنة ١٢٩٨، وكانت أسبوعية تظهر يوم الأحد. وانتقل إلى القاهرة وهي جذوة من نار، وغير اسم صحيفته بأمر عرابي باشا كبير الثوار فسمها «الطائف» تيمناً باسم بلدة بالحجاز مشهورة، وتفاؤلاً بأنها تطوف المسكونة كما جابتها جوائب أحمد فارس. واسترسل المترجم مع رجال الثورة حتى صار جُذيلها المحك، وعُذيقها المرجب، ولقبوه بخطيب الحزب الوطني، وقام سراة القطر وأغيانه يعقدون

المجتمعات ويولمون الولائم للعرايين، ويدعون المترجم للخطابة، فكانت له بها المواقف المشهودة، والأيام المعدودة، حتى استفحل الأمر وقامت الحرب بالأسكندرية بين الإنكليز والمصريين يوم الثلاثاء ٢٥ شعبان سنة ١٢٩٩، فسافر المترجم إليها مع جماعة من رؤساء الجند وبات بها ليلة، ثم لحق بعراي باشا وقد انهزم إلى كفر الدوار، ثم انتقل معه إلى التل الكبير وهو ينشئ صحيفة الطائف بالمعسكر، فيضمنها أخبار الانتصار، ويحشوها بالأكاذيب تهدئة للأفكار، حتى الهزيمة الكبرى على المصريين بالتل الكبير، ففرَّ عراي باشا وعلي باشا الروبي ومعهما المترجم إلى القاهرة يوم الأربعاء ٢٩ شوال من السنة المذكورة، واتفقوا على إرساله الأسكندرية بكتاب يطلبون به العفو من الخديو فسافر به يوم الخميس، ولما وصل إلى كفر الدوار بلغه القبض على زعماء الثورة ودخول الإنكليز القاهرة، فعاد إليها ليلاً وبقي في داره بجهة العشماوي إلى الصباح، وخرج مع والده وخادمه فركبوا عجلة وقصدوا بولاق، ورآه شاهين أفندي فؤاد المفتش بالمصرف العقاري، وهو من مماليك عباس باشا والي مصر، فظنه غير مطلوب، قال: ولولا ذلك لقبضت عليه. فلما وصلوا إلى بولاق ودعه أبوه واختفى هو وخادمه ولم يظهر لهما أثر. فأقام مختفياً نحو تسعة أعوام لا يهتدي إلى مكانه، وقد أعيى الحكومة المصرية أمره حتى جعلوا ألف دينار لمن يرشد إليه، وبثوا عليه العيون فلم يظفروا منه بطائل، فلما أعيتهم الحيل حكموا عليه بالنفي مدة حياته من القطر المصري، ويئس أصحابه من وجوده، وأشيع القبض عليه وخنقه سرّاً، ومنهم من أشاع موته حتف أنفه، ومنهم من أشاع هربه إلى بلاد

الإفرنج، فعد اختفاؤه من الأمور الغريبة، ولا غرو فأمره غريب من أوله، وكان من خبر اختفائه أنه لما ودع أباه ببولاق قصد دار الشيخ مصطفى<sup>(١)</sup> أحد أصدقائه فأقام بها أيامًا، ثم غير زيه فلبس ثوبًا من الصوف الأحمر المسمى بالزعبوط واعتم بعمامة حمراء وسدل على عينيه منديلًا، وأحفى شاربيه وأعفى لحيته حتى تغيرت هيئته، ثم نزل مع خادمه في سفينة قاصدة بنها، ثم انتقل منها ووصل إلى بلدة تسمى مينة الفرقى بقرب طلخا، وقصد رجلًا من مشايخ الطريقة الصاوية كان أخذ عليه العهد في السلوك؛ اسمه الشيخ شحاته القصبى، وكان مشهورًا بين الناس بالصلاح والتقوى، فلما دخل عليه لم يعرفه لتغير شكله، فجلس هنيهة حتى انصرف من المجلس، ثم اختلى به وعرفه حاله وأقام عنده ثلاثًا، ثم أشار عليه الشيخ بالانتقال واعتذر بكثرة الواردين، فتحول إلى دار أحد دراويش الشيخ الموثوق بهم، فأواه شهرًا، ثم قصد بلدة أخرى وطوحت به الطوائح ولقي الأهوال. وحدث أنه نزل مرة مختفيًا عند قوم فأخفوه في قاعة مظلمة يتساوى بها الليل والنهار، ويتوصل إليها من سرداب طويل شديد الظلمة، وكانت أرضها ترشح الماء لانخفاضها وقربها من خليج مار بجانب تلك البلدة، وكان لا يتمكن من الكتابة والمطالعة إلا على مصباح صغير من زيت الحجر المسمى بالغاز أو الجاز كثير الدخان، فقاسى الشدائد بهذا المكان تسعة أشهر، ولما خرج منه كاد لا يبصر الطريق لما غشي عينيه. وكان كلما حل أو ارتحل يغير اسمه وحليته، فتارة

(١) ترك المؤلف فراغًا قليلًا؛ لعله كان يريد ملأه بتكملة الاسم.

يبخر لحيته بالكبريت حتى تبيض، ويخضبها بالحناء أخرى. وكان اسم خادمه حسينًا، فسماه صالحًا وخفي أمره على الناس، وظنوه شيخًا من الصلحاء، حتى لقي مرة بعض من يخشاه وحادثه فستره الله وشمله بعنايته حتى فارقه.

ثم أقلت به يد الأقدار إلى بلدة تسمى العتوة القبلية بمديرية الغربية، فاختمني عند عمدتها الشيخ محمد الهمشري فأكرم مشواه وأقام في داره ثلاث سنوات ونيفًا؛ تزوج فيها وولدت له بنت وماتت ولم يشعر به أحد، وزوج خادمه حسينًا بأخت زوجته، ثم مات في أثنائها رب الدار وكان شهماً ذا مروءة كبيرة، وله امرأة مثله شهامة ومروءة، فاستحضرت أكبر أولادها وأعلمته أن ضيفهم المختفي عندهم هو عبد الله نديم طريد الحكومة، وسألته هل يطمع في الجعل ويسلمه أم يكون كأبيه في حفظ الجار وحماية الذمار؟ فاهتر الولد لقولها وأبى إلا أن يقتدي بأبيه في الكرم.

ولعمري إن ما آتته تلك الأسرة من مكارم الأخلاق وعلو الهمة لمما يندر مثله في هذا الزمن.

ونقل المترجم من بلد إلى بلد، وماتت زوجته، ثم ذهب إلى القرشية نزيلاً عند أحمد باشا المنشاوي، فكان يجتمع به صديقه القديم الأديب الأريب محمد أفندي التميمي وغيره، وتزوج هناك بنت مصطفى مئى من أهل المحلة الكبرى، إلا أنه لم يحمدم المقام فانتقل إلى دار التميمي في شهر ذي القعدة سنة ١٣٠٥ فأقام بها شهرًا، ثم سافر إلى الدلجمون

بمديرية البحيرة، فلم يمكث بها إلا نحو أسبوع، وعاد إلى الغربية وقصد البكاتوش فكان يقيم تارة عند عمدتها الشيخ إبراهيم حرفوش وينتقل تارة إلى دار جاره أحمد جوده، وكان رجلاً قوي الجنان لا يبالي بظلام الليل أنى سار فيه؛ فصار يصحب المترجم إذا أراد الانتقال من بلد إلى بلد في الليل الحالِك، ويتجشم معه أضيُق المسالك. وجعل المترجم إقامته بين البكاتوش وشباس الشهداء ينزل فيها عند محمد معبد الحلاق فيلقى عنده من الكرم المروءة ما لقيه إبراهيم بن المهدي عند ذلك الحلاق المشهور مدة اختفائه من المأمون. ولم يزل المترجم حتى انتقل عند صديقه وصديقنا الأديب الكامل والشاعر النائر محمد أفندي شكري المكي كاتب المركز بدسوق. أخبرني الأديب المذكور؛ قال: بينما أنا بالمركز يوماً إذ دخل على الشيخ إبراهيم حرفوش عمدة البكاتوش فسلم وجلس، ولمحت منه أنه يريد أن يسر إليّ أمراً فترقب خلو المكان، ثم أخبرني أن شخصاً عنده مشتاق إليّ، وهو صديق لي لم يرني منذ ثمان سنوات، فاستخبرته عنه فانصرف ولم يخبرني به. ثم صار يتردد علي بعد ذلك يذاكرني في هذا الصديق ولا يبوح باسمه، حتى وثق مني، فأخبرني أنه مختف واسمه عبد الله فقلت: لعله عبد الله نديم، فقال: نعم هو. فكتبت له بيتين من نظمي، وسألته توصيلهما إليه، وهما:

ولقد نذرت إذا لقيتك سالماً      لأقبلن مواطن الأقدام  
ولأثنين على سجايك التي      حثت على التحريير والإقدام

فذهب بهما، وعاد لي بعد يومين بقصيدة من نظم المترجم بخطه عدتها مائة بيت من البحر والقافية، يتشوق فيها إليّ ويذكر ما لاقاه أيام الثورة والاختفاء، ويتمنى لو فرج الله عنه فيفعل كيت وكيت، وكأنه نسي نفسه وما هو فيه من الضيق، فكتبت له أحياناً أطلب الاجتماع به. وبعد أسبوع حضر لي إبراهيم حرفوش ومعه ورقة بخط المترجم يطلبني فيها إليه يوم الجمعة بشباس الشهداء، فذهبت في الميعاد فوجدت محمد معبد الحلاق ينتظرنني، فذهب بي إلى داره وهي دار صغيرة على تل، وقد أنزلوا المترجم في مكان عال لا سلم له، فصعدت إليه على سلم من الخشب رفعوه بعد صعودي، فلما التقينا ووقعت العين على العين تعانقنا طويلاً، وأدركتني عليه شفقة فقبلت يده، ثم جلسنا نتحدث في القديم والحديث، وأطلعني على كتبه التي ألفها مدة الاختفاء، منها بديعية له شرحها شرحاً لطيفاً لم يكمله، وثلاثة دواوين من نظمه، وجزء من كان ويكون، ثم فارقت وقت العصر.

انتهى.

وانتقل المترجم عند صديقه المذكور بزوجته وكتبه مدعيًا أنه ابن عمه أتاه زائرًا من الحجاز، وسمى نفسه عليًا اليميني، فمكث نحو ستة أشهر، ثم انتقل بمفرده إلى شباس الشهداء ولحقت به زوجته بعد عشرين يومًا، ثم أعادها بعد خمسة وعشرين يومًا إلى دار شكري أفندي بدسوق ولحقها فمكثا ستة أشهر أخرى، ثم عاد إلى البكاتوش عند أحمد جودة، وكانت زوجته هذه تسيء إليه وتغاضبه فجمعت عليه مع ضيق الاختفاء

سوء معاشرة الأهل، حتى ضاق ذرعه منها مرة وهمّ بإظهار نفسه للحكومة ثم تراجع وأصلح أمره معها، ولكمته مرة على فمه فكادت تسقط ثنيتيه من الفك الأعلى، فربطهما بخيط من الحرير. وكان خادمه حسين مختفياً مع زوجته ببلدة الجميزة التابعة لمركز السنطة، فطلبت زوجة المترجم الذهاب إليه فأذن لها، فلما استقرت عنده تشاحت مع زوجته وكاد الأمر ينفضح، فأسرع الخادم لسيدة بالبكاتوش مستغيثاً، فانتقل المترجم إلى الجميزة وأصلح بينهما، وبقي هناك نحو شهرين فاستأنس وطاب له المقام، وعرفه عمدة البلدة فتغاضى عنه وكتم أمره، فكان يخرج للتنزه على غير عادته في الاختفاء فيلتف عليه العمدة وبعض أناس من البلدة، وهو يقرأ لهم ويعظهم ويسامرهم وهم مبتهجون به.

وكان يتردد على البلدة رجل يقال له حسن الفرارجي كان منتظماً في العسكر، ثم استخدم جاسوساً سرّياً، فلما بصر بالمترجم<sup>(١)</sup> أنكر حاله لما رآه عليه من سيما الاختفاء، ورجح أنه عبد الله نديم، فكتب إلى الديوان الخديوي ينبئهم بوجود رجل من العرابيين مختف بالجميزة، وأسرع إلى ديوان الداخلية فأوضح لهم أمره، فأعطوه ورقة بحليته، فلما تحقق منه أخبرهم به، فأمروا بالقبض عليه، وحضر من المديرية محمد أفندي فريد وكيل (الحكمدار) ومعه نفر من الشرطة ستروا ملابسهم بثياب أخرى، فأحاط بعضهم بالبلدة متفرقين، وصعد وكيل (الحكمدار) مع الآخرين

(١) تحت هذه الكلمة خط، وبالهامش: فأبصر رجلاً. وأغلب الظن أنه تغيير من بعض من نظروا في المخطوطة.

على تل مشرف على أفنية الدور، وأحسن المترجم بتلك الحركة، فأوجس في نفسه خيفة، وأراد الانتقال إلى دار أخرى فأخذ عييته على كتفه وصعد على سطح المكان، فأبصره الذين على التل، فصاحوا وصوبوا بنادقهم عليه، وأمروه بالنزول فنزل، ثم أحاطوا بالدار، وطرقوا الباب طرْقًا عنيفًا، وأيقن المترجم أنه مأخوذ لا محالة، ففتح له، وواجههم متجلدًا، فسأله محمد أفندي فريد عن اسمه فقال له: سبحان الله، أتجهل اسمي وأنت مأمور بالقبض علي، أنا عبد الله نديم، ذو الذنب العظيم، وعفو مولاي الخديو أعظم، سلمت أمري لله. فقبضوه هو وخادمه، وأعماهم الله عن كتبه وأوراقه، ولولا ذلك لأصابه شر عظيم بسبب أهاجيه القبيحة في الخديو وأسرته، وكان القبض عليه في ٢٩ صفر سنة ١٣٠٩، ولم ينل الواشي به شيئًا من الجعل لفوات الأجل المضروب للمكافأة، ثم استاقوهما إلى المركز، وسألوه عن اختفى عندهم، فلم يقر بأحد، وسألوا خادمه وضربوه، فأقر بالبعض، ونقلوهما إلى المديرية بطندتا، فسجنا بعض أيام، ووكيل النيابة بالمحاكم يوالي سؤالهما، وانتهى الأمر بعفو الخديو عنه وعمن آواه، ونفيه خارج القطر.

فاختار يافا ثغر القدس الشريف، ووصلها في غروب يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول، ونزل عند السيد علي أفندي أبي المواهب مفتيها، ولما دخل داره وعرفه بنفسه، قام واعتنقه، وضحك وبكى. فأقام عنده شهرًا، ثم اتخذ له دارًا، وعرفه أعيانها وفضلائها، وأكرموه وواسوه، جزاهم الله خيرًا. ثم رحل رحلته إلى نابلس وسبطينة وقلقيل وغيرها من البلاد

الفلسطينية. واجتمع بطائفة السامرة واطلع على كتبهم ومعتقداتهم كما رأيت به بخطه في كتاب أرسله لأحد أصدقائه في مستهل رمضان. ولم يزل مقيمًا بيافا حتى مات الخديو وتولى ولده عباس باشا في جمادى الثانية، فعفا عنه وأباح له العود إلى مصر. قال في آخر ذلك الكتاب: «عزمتنا على الحضور بعد العيد إن شاء الله تعالى، فإن موسم سيدنا موسى الكليم يعمل في نصف شوال، ولا أحضر حتى أزره مرة ثانية، فإنه صاحب الأمر بالعفو عني، وإن كان الظاهر خلافه، وذلك أني عند دخولي حضرته الشريفة أنشدته في الحال:

رجوتك يا كليم الله حاجًا      أرجيها وقد حققت فضلك  
فقل لي مثلما لك قبل أوحى      إله الخلق قد أوتيت سؤلك

فرأيت له ليلاً يقول لي: (قم رَوِّح) ثلاثاً، وكانت ليلة ٣ رجب، وهو تاريخ صدور الأمر». انتهى ما نقلته من خطه.

ولما عاد إلى مصر استوطن القاهرة، وأنشأ مجلة الأستاذ في شهر صفر سنة ١٣١٠، فبرزت موشحة ببديع مقالاته وغرر أزجاله وموشحاته، وبدأت الوحشة في أثناء ذلك بين الخديو والإنكليز، وكان ما كان من عزله صنيعتهم مصطفى فهمي باشا كبير الوزراء، ومعاكستهم فيما يريدون. فقام المترجم يستنهض الهمم ويحض على موازنة الخديو ونبذ طاعة سواه، وكتب في ذلك المقالات الطويلة بالأستاذ حتى أحفظ الإنكليز، وخشوا من اتساع الخرق لمكانته السابقة من النفوس، وسعى حساده بما سعوا، ولفقوا ما لفقوا، فأوقفوا مجلته في شهر ذي القعدة من السنة المذكورة،

وأعادوه إلى يافا منفيًا بعد أن أعطوه أربعمائة دينار، وأجروا عليه خمسة وعشرين كل شهر، واشترطوا أن لا يكتب بشأن مصر كلمة، ولم ينفعه الخديو لقصر يده.

فلما استقر المترجم بيافا لم يسلم من السعاية به لدى السلطان، فأمر بإبعاده فعاد إلى إسكندرية متحيرًا، ولقد لفظته البلاد لفظ النواة، فسعى له الغازي أحمد مختار باشا وساعده حتى قبله السلطان المعظم عبد الحميد بدار السلطنة، واستخدمه في ديوان المعارف ووظف له خمسة وأربعين دينارًا مجيدًا في الشهر، فأمضى بها بقية أيامه شريدًا عن وطنه، بعيدًا عن أهله وخلانه، حتى اشتدت عليه علة السل، فلقي حمامه في الرابع من شهر جمادي الأولى سنة ١٣١٤.

ودفن بمقبرة يحيى أفندي في بشكطاش، وضاعت مؤلفاته ودواوينه، ولم يظهر منها إلا جزء من «كان ويكون» كان يطبعه ذيلًا للأستاذ، وكتاب آخر نسبوه إليه اسمه «المسامير» محشو بالهجو القبيح في الشيخ أبي الهدى الصيادي نزيل دار السلطنة، فمضى وكأنه لم يكن، رحمه الله رحمة واسعة.

ومن تأمل بعين الاتعاظ في تقلب الأحوال بالمترجم، وما ذاقه من حلو الزمان ومره، وقاساه مدة الاختفاء، ثم النفي حتى مات غريبًا طريدًا، حق له العجب، وعرف كيف يعبث الزمان بأهل الفضل من بنيه.

ونشأ المترجم فقيرًا كما قدمنا، وعاش في قلة، فإن أصاب شيئًا بدده بالإسراف، وكان في أول أمره يرتدي الثياب الإفرنجية المعلومه، فلما ظهر بعد الاختفاء لبس الحجة والقفطان، واعتم بعمامة خضراء إشارة إلى الشرف، وكان شهى الحديث حلو الفكاهة، إذا أوجز ود المحدث أنه لم يوجز؛ لقيته مرة في آخر إقاماته بمصر فرأيت رجلًا في ذكاء إياس، وفصاحة سحبان، وقبح الجاحظ. أما شعره فأقل من نثره، ونثره أقل من لسانه، ولسانه الغاية القصوى في عصرنا هذا، وقد انتخب أخوه عبد الفتاح أفندي جملة صالحه من مقالاته، جمعها في كتاب سماه «سلافة النديم» فارجع إليه إن شئت.

ونحن ذاكرون من شعره ما يحتمله هذا المختصر، فمن ذلك مرثيته في الخديو محمد توفيق باشا وقد أشار إليها في كتاب أرسل به من يافا في ١٦ جمادى الثانية سنة ١٣٠٩ يقول فيه: «غمني وكدرني موت الحضرة الخديوية لأمر: (أولًا) فلغفوه عني وإحسانه إليّ، (ثانيًا) لسابقة معروفة معي وتوجهاته السابقة، (ثالثًا) لصغر سنه، (رابعًا) لصغر سن أنجاله، (خامسًا) لصغر سن حرمه وما تقاسيه من حزنها عليه لما كان بينهما من شدة الألفة والمحبة، (سادسًا) لأنه كان برزخًا بين مصر وبين نكبات إنكلترة وغيرها، والله تعالى يجري الأمور على السداد، وسأبعث بمرثية رنانة لحضرة ولدي مصطفى بك ماهر رئيس ترجمة ديوان الحرية ليطبعتها وينشرها على حداثها». انتهى ما نقلته من خطه، ولم أقف إلا على ثلاثة أبيات منها، ذكرها المترجم بالأستاذ وهي:

ما للكواكب لا ترى في المرصد  
عم الكسوف الكل أم فقد الضيا  
والكون أصبح في لباس أسود  
أم كلنا يرنو بمقلة أرمـد  
وتاريخها:

فملائك الجنات قالت أرخو  
توفيق في عز النعيم السرمدي

ومن مختار شعره قوله من قصيدة لم نعرث منها إلا على هذا القدر:  
سيوف الثنا تصدا ومقولي الغمد  
ومن سار في نصري تكفله الحمد  
ومنها:

ومن عجب الأيام شهم أخو حجا  
ومن غرر الأخلاق أن تهدر الدما  
يعارضه غر ويفحمه وغد  
لتحفظ أعراض تكفلها المجد

ويقال إنه نظمها بحضرة شاهين باشا تبيكياً لمن زعم قصور الشعراء  
عن معارضة أبي الطيب المتنبي في قوله:  
ومن نكد الدنيا على الحرّ أن يرى  
عدوؤه ما من صداقته بد

قلت: بين القولين فرق ظاهر للمتأمل، وأين الثريا من يد المتناول؟

ومن شعره قوله أيام اختفائه، وكتب بها إلى صديق له يسليه على نازلة  
نزلت به:

يا صاحبي دع عنك قول الهازل  
اجهل تجد صفو الزمان فإنه  
واسمع نصيحة عارف بالحاصل  
من قسمة القدم الغبي الجاهل  
أمر المعاش فحظه للغافل  
ودع التعقل بالتغفل يستقم

مالا وجاهها بعد ذكر خامل  
بحروب دهر لا يميل لفاضل  
دنياك ما قيدت بغير الباطل  
حال الحياة وبعدها بمحافل  
شمس الحقيقة خلف ذلك الحائل  
مدح البليغ جميل سعد حافل  
أو لا فعش كالناس في ذا الساحل  
مال الغبي وحكمة للكامل

وارض البلادة تغتنم من بابها  
وإذا آيت سوى العلوم فلا تضق  
قلب تواريخ الألى سبقوا تجد  
تجد الأفاضل في الزوايا كلهم  
العلم ستر كالسحاب به ترى  
هل أبصرت عيناك ديواناً به  
إن قلت إي فاذكر لنا من ناله  
ضدان لا تلقاهما في واحد  
ثم ذيلها بنثر أضربنا عن ذكره.

ومنه قوله وضمنها كتاباً كتبه مدة اختفائه لأحد أصدقائه:

عليه من اللطف الخفي ستور  
فيصبر والقلب الرضي صبور  
على فرجي دون الأنام قدير

وبعد فهذا شرح حالة غائب  
تدور به الأهوال حول مدارها  
عسى فرج يأتي به الله إنه

## ترجمة سلطان باشا

هو محمد باشا ابن سلطان بن أحمد، من قرية بالصعيد تسمى زاوية الأموات، بالجانب الشرقي من النيل، تجاه منية ابن الخصيب ولد بها سنة ١٢٤٠ أو إحدى وأربعين، ورباه أبوه فسلمه لمعلم للقرآن بالقرية علمه القراءة والكتابة، وحفظه ما تيسر من القرآن الشريف. ولما بلغ أشده تركه أبوه ينظر في أمور القرية المذكورة، إلى أن نقل حسن باشا الشريعي من نظارة قسم قلوصنا، في ولاية محمد سعيد باشا على مصر، فسأله الوالي عمن يقيمه بدله على القسم المذكور، فذكر له المترجم، وأثنى عليه، وضمن كفايته، فأقيم ناظرًا لهذا القسم مدة ثلاثة سنوات، ثم جعله سعيد باشا وكيلًا لمديرية بني سويف، وبعد سنتين جعله مديرًا لها، فبقي فيها إلى أن توفي سعيد باشا، وتولى ابن أخيه إسماعيل باشا، فنقل المترجم مديرًا للغربية فمكث بها نحو سنة، ثم أمر بنقله مديرًا لأسيوط فأقام بها نحو سنتين، ثم جعله وكيلًا لإدارة تفتيش الوجه القبلي، ثم أحال عليه النظر في ضياعه التي بالصعيد المسماة بالجفالك، ثم جعله مفتشًا على مديريات الوجه القبلي، وانحرف عنه في أثناء ذلك عكوش باشا، وشاهين باشا، وعظمت الوحشة بينه وبينهما فوجد حاسدوه فرصة للإيقاع به نظرًا لمكانة الرجلين عند الخديو، فسعوا به عنده ووشوا له بأمر عنه كان يكرهها، فغضب عليه وأمر بسفره إلى السودان رئيسًا لمجلس الخرطوم، وهو في الحقيقة نفى على جاري عادة ولاية مصر، إذا غضبوا على أحد نفوه إلى السودان في صورة تنصيه بأحد المناصب. فصعد المترجم

بالأمر وسافر، ولكنه لما وصل بني سويف وصله أمر الخديو بالرجوع بسبب تداخل ولي العهد محمد توفيق باشا، وسعيه بالشفاعة له لدى والده لأنه كان يحبه فرجع من الطريق وقصد قريته زاوية الأموات، فمكث بها عدة شهور، ثم أذن له بالإقامة في القاهرة فأقام بها في داره المعروفة بجهة الإسماعيلية مدة، إلى أن جعله الخديو إسماعيل باشا مديرًا للفيوم، ولكنه عاد فألغى هذا الأمر قبل سفره. وبعد نحو سنة رجع بأمر الخديو المذكور إلى بعض المناصب التي كان بها بالوجه القبلي. وخُلع الخديو وتولى بعده ولده محمد توفيق باشا. وقامت الثورة العراقية وطالب العراقيون الخديو بإعادة مجلس النواب، وكان أهمل شأنه بعد توليته، فأجابهم لذلك وألف مجلس النواب، فجعل المترجم رئيسًا له يعلمه من إخلاصه ومحبته له، ثم وقعت بينه وبين العراقيين وأمراء الجند منازعات وخلاف في بعض الأمور، ظهر لهم منها ميله للخديو، فأبغضوه ونووا له السوء.

وقام عليه مرة عرابي وبعض الضباط في داره، فهددوه بالقتل وجردوا سيوفهم في وجهه، وكاد يقع في أيديهم، لولا أنهم تراجعوا عنه من تلقاء أنفسهم، واشتد قلقه بعد هذه الحادثة، ورأى حياته معهم على خطر، فاحتاط لنفسه، وصار إذا جلس بداره وضع بجانبه مسدسًا محشوًا ليدافع به عن نفسه إذا فوجئ، ولم يغن تهديدهم له شيئًا، ولم يجد في تحويله عن الخديو، بل استمر على إخلاصه، والقيام بمساعدته، والأخذ بناصره. ثم اشتدت الفتنة، وسافر الخديو إلى الإسكندرية، فصحبه المترجم ملازمًا

خدمته، واستدعاه هناك درويش باشا مندوب السلطان في شعبان سنة ١٢٩٩، وأنبأه بإنعام السلطان عليه برتبة روملي بيكليكلي، وأعطاه تقليدها بيده.

ثم قامت الحرب على ساق، بين الإنكليز والعرايين، فندبه الخديو لمساعدة الإنكليز، وإرشادهم إلى الطرق، فبذل ما في وسعه وكاتب بعض مشايخ العرب والعمد، ومن لهم شأن، يمنيهم بالخلع والرتب والأوسمة، على أن يبذلوا الطاعة للخديو والإنكليز وينبذوا طاعة العرايين، فنجح في مسعاه، ووافقه الكثيرون، فانضموا للخديو وشيعته سراً، ووقع الفشل في زمرة العرايين، وانهزمت جموعهم، واستولى الإنكليز على مصر ودخلوا القاهرة يوم الخميس مستهل ذي القعدة سنة ١٢٩٩، فأرسله الخديو إليها نائباً عنه، وأطلق يده في التصرف في الأعمال، فوصلها في ٢ ذي القعدة ليلاً من طريق بورسعيد، واستبد بالأمور أربعة أيام حتى حضر النظار إليها، وباشروا أعمالهم. وقد تاه المترجم وتجبر في هذه الأيام الأربعة، وأمر بالقبض على كثيرين ممن كان له بغية في القبض عليهم وإذلالهم، ومنهم حسين باشا الشريعي، فإنه أوغر صدر الخديو عليه، وأشار بسجنه، ونسى له سابق فضله عليه، وذلك لخلف وقع بينهما إبان قيام الفتنة.

ولما حضر الخديو من الإسكندرية عقب إطفاء الثورة وذهب الناس لتهنتته بقصر الجزيرة يوم الثلاثاء ١٣ ذي القعدة المذكور أثنى أمامهم على المترجم ثناء كثيراً، وقال: هذا هو الرجل الذي أخلص لنا في السر والعلانية، وأنعم عليه بالوسام المجيدي الأول، وأمر بإحضاره فوضعه

على صدره بيده أمامهم، ثم سعى له عند النظر للإنعام عليه بعشرة آلاف دينار مصري مكافأة على خدمته ومسعاها، فأعطيت له من ديوان المالية. وكافأه الإنكليز بوسام (سان جورج، وسان ميشيل) من الدرجة الأولى لمساعدته لجندهم إبان الحرب، وذهب به السير مالت قنصلهم الكبير إلى داره وسلمه له يوم الثلاثاء ١٧ محرم سنة ١٣٠٠، وقال له: إن من شروط هذا الوسام أن تضعه مولاتنا الملكة بيدها على صدر من تنعم عليه به، وقد أتيت إليكم نائبا عنها في وضعه على صدركم جزاء إخلاصكم وولائكم لجلالتها ولحضرة الخديو. ثم في جمادى الأولى من هذه السنة أنعموا عليه أيضًا بالميدالية الإنكليزية المضروبة بخصوص الحرب العراقية.

وبقي المترجم بعد ذلك في داره بالقاهرة بلا عمل، ملقبًا بلقب رئيس مجلس النواب، ثم انتدب للإشراف على شواطئ النيل وجروفه بالوجه القبلي لما زاد في الفيضان، فصدع بالأمر على كره منه، ورأى ذلك خطأ من مقامه، واستقل العشرة الآلاف والوسامين على ما قام به للخديو والإنكليز، وانعكست آماله التي كانت ترمي إلى تنصيبه في منصب كبير، وفترت نفسه، وكثرت همومه، وانحرف عن الإنكليز، وطفق يذمهم بعد أن كان لهجًا بمدحهم والثناء عليهم في كل مجلس يجلسه، واعتزل الناس فجعل إقامته بالصعيد، ولما ذهب اللورد دوفرين إلى تلك الجهة زاره المترجم فلم يلتق منه ما كان يؤمله من حسن المقابلة، وساله في عرض حديثه عن حضور أخوي الخديو حسين باشا وحسن باشا من أوربة، فقال

له: نعم حضراً، فقال: ولم حضراً؟ فأعرض عنه اللورد ولم يجبه، ونقل حديثه مع غيره، فقام المترجم من المجلس كاظمًا غيظه، وزاد في ذمه للإنكليز، وأثرت هذه الأحوال فيه فاعتلت صحته.

ثم صدر الأمر العالي يوم الأربعاء ٢١ محرم سنة ١٣٠١ بجعله رئيسًا لمجلس شورى القوانين الذي ألف حينذاك، بدلًا من مجلس النواب، حسب إشارة اللورد دوفرين في تقريره عن مصر، فتولى هذا المنصب وهو عليل، ثم ازدادت علته، فأشار عليه الأطباء بالسفر إلى أوربة للمعالجة، حيث لم تفده معالجة أطباء مصر، فسافر إلى بلاد النمسة، ونزل بنزل في مدينة غراتس، فوافاه أجله هناك صباح يوم الإثنين ٢٦ شوال سنة ١٣٠١.

ونعى إلى الخديو في ذلك اليوم بالبرق، نعاه له قليني باشا فهمي فأسف عليه أسفًا شديدًا وجزع، وأمر بنقل جثته إلى القطر المصري لتدفن فيه، وأقام له مأتمًا من الخاصة الخديوية، وناط بمحافظ القاهرة القيام به بالنيابة عنه، ووصلت جثة المترجم إلى الإسكندرية يوم الأربعاء ٦ ذي القعدة من السنة المذكورة، فأمر الخديو بتشيعها تشييعًا كبيرًا بالإسكندرية، فسارت في طليعة الجنازة كتيبة من فرسان الشرطة، ثم كتيبة من الجند الرجالة منكسي الأسلحة، يتلوهم قراء الأحزاب والبردة، ثم جميع كبار الموظفين بالإسكندرية، فتلاميذ المدارس، فجم غفير من الأعيان حتى أوصلوا النعش إلى السكة الحديد، فجعلوه في قطار مخصوص سافر به من هناك إلى منية ابن الخصيب، ونقل منها إلى

الشاطئ الشرقي حيث دفن بمقبرة بلده. وخلف المترجم ثروة واسعة، وولداً واحداً عمره نحو ستين، وثلاث بنات. رقد رثاه الشيخ علي الليثي بقصيدة أولها:

لا تأمن الدهر واحذره أخا الفطن  
يا سابحاً في عباب اللهو من عمه  
دهر تنكر في حاله لا ثقة  
بيننا نرى المرء في أزر الصفا جذلاً  
يمسي وأزهار روض العيش يانعة  
ذي شيمة الدهر لم يسلم مسالمه  
نرجو وفاه ولو كان الوفي لما

فعنصر الدهر مطبوع على المحن  
دع الأمانى واحذر عادي الزمن  
به لداريه في سر وفي علن  
إذ ألبسته المنايا حلة الكفن  
حيثاً ويصبح منعياً على ظعن  
هيهات يرعى ذماماً غير مؤتمن  
أودي<sup>(١)</sup> بنفس أبي سلطان ذي المنن

ومنها والله أعلم بما يقول:

يا لهف نفسي على واف له همم  
ببعضها لو تحلى الدهر لم يخن

ومنها:

إنني لأعجب من ساع لغائلة  
لكن قضى الله من إتمام نعمته  
من مثله قام بالأمر العظيم وقد

وكان يرجو شفاء الروح والبدن  
بأن يموت شهيداً نازح الوطن  
كان الزمان عبوس الوجه بالفطن

ومنها في إقامة الخديو مآتمه:

ويعد أن مات إتماماً لنائله  
أحيا مآتمه جرياً على السنن

(١) في الأصل: أوردى. وهو سبق قلم.

هذي العناية قد ود الحسود له  
 قل للحسود انتهض واحلل مكانته  
 يا شامئًا بنعي المكرمات فعش  
 هذا وإلا فنح مثلى مساعدة  
 ما كل من مات تبكيه الكرام ولا  
 هذي مساجده هذي مدارسه  
 لا أكذب الله إنني مت من أسف  
 وقد كفاني رثا شجو يؤرخه  
 لو كان أودي ولاقى مثلها وفني  
 خلالك الجوف فاقرع هامة الفتن<sup>(١)</sup>  
 وخذ أمانًا بما تهوى من الزمن  
 وانثر فرائد دمع غالي الثمن  
 كل البكاء بكاء الواله الحزن  
 هذي منازل أضياف على سنن  
 لولا يقيني بوشك القرب لم أكن  
 سلطانه باشا شهيدًا مات يا حزني

وكان للمترجم إمام بالأدب وقرض الشعر، اشتهر عنه نظم النوع المسمى بالصعيد بالواو، وأخبرني من أثق بقوله أنه اطلع على قصيدة له في مدح حسن باشا الشريعي رحمهما الله.

وحدثني صديقنا علي رفاعه باشا، ابن رفاعه بك الشهير قال: كانت بيني وبين المترجم وحشة ازدادت لما جعلت وكيلًا للمعارف إبان الثورة العراقية، ثم عزلت من هذا المنصب بعيد الثورة، وقصدت السفر إلى بلدتي طهطا، فلقيته بالقطار، فلما وقعت عينه على عينه نظر إليّ نظر الشامت ثم قال: إيه يا علي بك، لقد أجاد الشاعر في قوله:  
 برغم شبيب فارق السيف كفه      وكانا على العلات يصطحبان

فقلت: نعم أجاد، وأجود منه قول الآخر:

(١) هكذا في الأصل، وربما كان اللفظ القتن، جمع قنة.

إنني لأرفع عيني حين أرفعها<sup>(١)</sup> على كثير ولكن لا أرى أحدا

---

(١) في الأصل بخط المؤلف أيضًا: أفتح ... أفتحها. تحت ما هو مذكور فوق.

## ترجمة مصطفى باشا الخزينة دار

جركسي الأصل، اشتراه عزت باشا، أحد الصدور في زمن السلطان محمود الثاني، ورباه صغيرًا في القسطنطينية، ثم أتى به إلى مصر سنة ١٢٥٢، فاشتراه كتخداها عباس باشا ابن طوسون باشا ابن محمد علي باشا، وحظي عنده حظوة عظيمة، وقدمه على سائر مملوكيه، ولما تولى إبراهيم باشا ابن محمد علي علي مصر سنة ١٢٦٤ استأذن منه عباس باشا في السفر إلى الحج، فسافر إلى الحجاز وأقسم بأنه لا يعود لمصر ما دام عمه واليًا عليها، لوحشة وقعت بينهما. وأخذ المترجم معه، فلما وصل إلى مكة وأدى فريضة الحج، وصل إليه البشير بموت عمه إبراهيم باشا، وتوليته مكانه، وصادف ذلك موت خزينة داره راغب أغا الموره لي، فأقام المترجم بدله وأعتقه، ولزمه من ذلك الحين لقب الخزينة دار، ثم جعله رئيسًا لمملوكيه، وأنعم عليه برتبة أميرالاي، ووظف له ألف دينار مصري في السنة، وعاد معه إلى مصر، فكبر شأنه، وعظمت منزلته بين الأمراء، وأمر ونهى في الولاية، وحل عند سيده بمنزلة كبيرة، حتى أمر أن يكون أمر المترجم كأمره نافذًا لا يرد في كافة الدواوين، وكان يقول له: أنت يا مصطفى مثل أولادي، والمترجم لا يقابل ذلك إلا بالصدق والإخلاص في الخدمة، والوالي يوالي بره، ويزيد في إعزازه، حتى أمر أن يركب مثل ركوبه في موكب بجند وحاشية، فاستعفى من ذلك وقال: عبدكم يكفيه ركوب جنديين يستخدمهما في خدمة أفندينا، فقبل منه وأعفاه، وتسامع الناس بذلك فلامه بعض أخصائه على إياته هذا الشرف العظيم، فقال له:

أنتم جهلاء لا تقرءون العواقب، أما تعلمون أنه إذا مات أو غضب عليّ أسلب هذا الشرف وينحط قدري بين الناس، أفليس الأولى لي أن أبقى على حالة واحدة لا أغيرها؟

وكان المترجم ميالاً لفعل الخير يسعى فيه جهده، يروى أنه أنقذ نحو ثلاثمائة شخص من القتل والنفي لنفاذ كلمته عند الوالي.

ويروى أن عباساً باشا غضب مرة على أحمد باشا المنكلي، وكان من جلة القواد، فجفاه الناس وخصوصاً الأمراء على عاداتهم مع من يغضب عليهم الولاة، حتى يبلغ بالواحد أنه لا يستطيع المرور أمام دورهم، واتفق أن المنكلي ذهب يوم العيد إلى العباسية لمقابلة الوالي وطلب العفو، فلقني إعراضاً من الحاشية ونفوراً، ورآه المترجم على هذا الحال فصعب عليه مكانه لما كان يعلمه عنه من علو المنزلة عند الولاة السابقين، فأسرع إليه وأكرمه وأمر له بالقهوة والدخان، وجلس بين يديه متأدباً، ونمى الخبر لعباس باشا فغضب واستدعى المترجم وويخه على إكرامه رجلاً مغضوباً عليه منه، فتلطف معه وقال له: حلم أفندينا أكبر من كل ذنب، وهذا الرجل تعلمون حسن بلائه في الخدمة، وقد جرأني هذا الحلم بأن سكنت روعه وأخبرته برضاكم عنه، وأنكم دائماً تذكرونه بالخير. وتقولون: هذا رفيقنا بالشام يوم كنا مع عمنا في المحاربة، وأفندينا أكرم من ألا يقبل شفاعة عبده فيه، فضحك عباس باشا وقال: لا بأس عليه قد عفوت عنه، ثم استدعاه فدخل وقبل الأرض من شدة فرحه ودنا منه حتى

قبل قدمه، فأجلسه وبش في وجهه وقال له: أنت (أرقداش) ثم صرفه شاكرًا مسرورًا.

ثم لما مات عباس باشا بقى المترجم خزينة دارًا لدائرته زمنا قليلا، وتولى محمد سعيد باشا على مصر وكان بالإسكندرية فتأخر بها خمسة أيام خوفاً من أن تغتاله شيعة عباس باشا إذا حضر إلى القاهرة لما بلغه من أن الألفي يريد تولية الأمير إلهامي باشا ابن عباس باشا، فتأخر حتى كتب له الأعيان والأمراء بالطاعة وأرسلوا كتابهم إليه وفيه توقيع المترجم، فاطمأن وحضر إلى القاهرة ونزل في قصر شبرا عند أخيه حليم باشا، فبات عنده ليلة لم يهنا فيها بنوم وأخبر أخاه أنه بلغه عن المترجم أن عنده في العباسية خمسمائة فارس بسلاحهم، وأنه يخشى من هجومه بهم على القصر قصد اغتياله، فصرف عنه أخوه هذا الوسواس، ثم طلب المترجم بعد ذلك إلى القلعة وخرج إليه حسن باشا المناسترلي وقال له: أفندينا يعلم أنك رجل عاقل فما هذه الخمسمائة الفارس التي عندك بالعباسية؟ أتحاول أن تحدث بهم أمرا، أو تجدد لك ملكًا؟ فقال: معاذ الله من ذلك إنما أنا عبد من عبيد أفندينا، وكل ما سمعه عني زور وبهتان من سعى المفسدين، وبعد فهل هذه الفرسان في بطن الأرض أو فوق ظهرها، وكيف خفي عليكم أمرها، نحن ليس عندنا غير عشرين فارسًا لحفظ قصور الحرم، فتبين لهم صدقه. ثم لما أراد سعيد باشا السفر إلى دار السلطنة لشكر السلطان على توليته -على عادة ولاية مصر من بني محمد على مع سلاطين آل عثمان- وجد خزانة مصر خالية من المال، فطلب

من المترجم إقراضه خمسين ألف دينار من أموال عباس باشا التي بيده، فأبى وتوقف وقال: إنما أنا أمين عليها وصاحبها إلهامي باشا بإستنبول، ولا يجوز لي التصرف في ماله بغير إذنه. فتداخل بعض الأمراء في الأمر، حتى رضي بإقراضه القدر المذكور بشرط أن يكتب صكاً يوقع عليه، ففعل وأخذ المال، ولما حضر إلهامي باشا من دار السلطنة أعطاه المترجم الصك وقال له: هذا المال أخذه عم أبيك، فإن شئت طالبت به وإن شئت تجاوزت له عنه، فعدت هذه الحادثة من مواقف المترجم المحمودة.

وبقي المترجم خزينة دارًا لإلهامي باشا حتى رآه ينفق أمواله في غير وجهها، فنصحه بأنه إذا دام على هذا الحال لا يبقى ولا يذر شيئاً مما تركه والده، وأوصاه بالحزم، وقال له في عرض كلامه: يا سيدي، أنا لا أنهاك عن الكرم والإحسان إلى الفقراء، ولكنني أنهاك عن الإسراف والتبذير والإنعام على صغار الخدم بهذه الجواهر والنفائس الثمينة التي تراها في أيديهم كل يوم، ولما رأى إعراض الأمير عنه وتماديه فيما هو فيه استعفى من منصبه ولزم داره التي بالتبليطة. ثم بدا له السفر إلى دار السلطنة فسافر إليها، وعلم السلطان عبد المجيد بن محمود بمقدمه فطلبه إلى القصر، ولكنه لم يقابله بل أمر أولاده الأمراء مرادًا وعبد الحميد ورشادًا بإكرامه، فقابلوه ولاطفوه، ثم قيل له: إن في نية السلطان الإنعام عليه برتبة باشا، وأشير عليه بعدم السفر فلم يوفق للإقامة بل سافر بغير إذن إلى الحجاز فحج وعاد لمصر، وكان الوالي سعيد باشا أرسل إلى كامل باشا زوج

أخته الأميرة زينب هانم أن يراقب المترجم مدة وجوده بدار السلطنة؛ لأنه يوجس من سفره خيفة، فأعلمه أنه تحقق من أن الرجل ليس له مقصد سوى التنزه والسياحة فقط، وأراد سعيد باشا مرة استخدامه فشكر ولم يقبل، ولما تولى إسماعيل باشا على مصر أنعم عليه برتبة ميرميران وأمر باستخدامه عضوًا في مجلس الأحكام فاعتذر عن الاستخدام وقال للرسول: إن كنتم تجبروني على الخدمة لأجل رتبكم فهاك (فرمانها) أردته لأفندينا، فأقره إسماعيل باشا على الرتبة، وأعفاه من الخدمة.

وبقي بعد ذلك في داره وينتقل تارة إلى ضياعه يراقبها وينفق من غلتها حتى وافاه أجله، فمات محمود السيرة، عف السريرة، قليل الشاكرين، كثير الشاكرين، لا يقطع فرضًا، ولا يقصر عن نافلة، مع إحسان للفقراء وسعة في النفقة من غير تقتير ولا إسراف، وخلف ثروة واسعة وأموالًا طائلة من غير عقب؛ لأنه لم يتزوج في عمره إلا بنت راغب أغا سلفه في الخزينة دارية، وكان إلهامي باشا أراد أن يزوجه لشكيب باشا مدير ديوان الأراضي الأميرية الآن، فلم تقبله واختارت المترجم فتزوجها وانتقل إلى دارها فأقام معها نحو ثلاثة أعوام، ثم فارقه بكرًا لم يبن بها رحمه الله تعالى.

## ترجمة الشيخ محمد أكرم الأفغاني

هو الشيخ الأجل، والعالم العامل، القدوة الورع، نزيل القاهرة، أصله من القبيلة الأفريدية النازلة في مضيق جبل حيدر المشهور الآن بحبل خيبر الفاصل بين الهند وبلاد الأفغان، ولد ونشأ به، ثم رحل إلى الهند لطلب العلم وهو في الحادية والعشرين، فورد لكنهوه وهي حافلة بالعلماء، فقرأ العربية والمنطق والحكمة والعقائد والتصوف والفقہ الحنفي والطب والرياضيات على الطريقة القديمة حتى صار من الفحول المشار إليهم، مع العفة والتقوى والتشدد في الدين، ثم ساح في أغلب بلاد الهند وجعل أكثر إقامته في لکنهوه، ثم بدا له السفر إلى الحجاز لقضاء فريضة الحج، فسافر إليه حوالي سنة ١٢٧٢، وبعد قضاء المناسك ورد على مصر ونزل بالأزهر برواق الأفغانية المشهور برواق السلیمانية، فاجتمع به هناك جلة العلماء مثل الشيخ حسين المرصفي وغيره، وبلغ خبره محمد أفندي الأفغاني المشهور بالكشميرجي تاجر المطارف الكشميرية بجوار خان الخليلي، فاجتمع به وصوب له الانتقال إلى مكان فوق حانوته، فاكثرى به محلاً وانتقل إليه وأقام به نحو تسعة أشهر، وتسامع به الأكابر مثل حسن باشا المنسترلي كتحدا مصر وإسماعيل باشا عاصم، فسعوا إليه وزاروه، وبلغ خبره الأمير أحمد باشا رفعت بن إبراهيم باشا والي مصر من محمد أفندي الأفغاني فاشتاق لرؤيته، إلا أنه كان على قدم السفر إلى ضيعة له، فأرسل له خمسة وعشرين دينارًا حباه بها.

ثم سافر المترجم إلى دار السلطنة واجتمع هناك بعارف حكمت بك الذي كان شيخًا للإسلام وبغيره من العلماء، فظن عارف بك أن مجيئه لطلب منصب علمي أو فتح (تكية) أو نوال صلة، وسأله عن ذلك ووعدته بالمساعدة، فعرفه المترجم حقيقة أمره، وأنه ما ورد إلا للسياحة. وأقام بدار السلطنة نحو عشرة أشهر، ثم سافر منها إلى الشام، ومر بأزمير وتسامع به علماؤها فحضر له كبيرهم إلى السفينة، وسأله النزول وألح عليه فقبل، وأقام عندهم عشرة أشهر أخرى قرأ لهم فيها ديباجة الفتوحات المكية، ثم سافر على غير رغبته إلى الشام، فلقي من علمائها إكرامًا زائدًا واحتفالًا كبيرًا، لا سيما من كبيرهم الشيخ سليم العطار، وتلقوا عنه بعض رسائل منها تشريح الأفلاك في الهيئة، وفصوص الحكم لابن العربي. ثم أراد الشخصوص إلى بغداد، ولكنه استصعب السفر إليها برًا؛ لكبر سنه وبدانة جسمه، فعول على السفر إليها بحرًا، وأتى مصر بنية السفر منها في البحر الأحمر وخليج فارس إلى البصرة، ومنها إلى بغداد، فلما وردا أنزله السيد أحمد الحسيني شيخ طائفة النحاسين بداره وقام بشئونه أتم قيام، وتراخت عزيمة المترجم عن السفر، وبدا له أن يتخذ القاهرة دار إقامة ما شاء الله تعالى، فانتقل إلى مكان اكتراه بخان الخليلي، وأقام به بضع سنوات منكمشًا عن العالم مقبلًا على شأنه، مواظبًا على الإقراء والتدريس، ولم يكن معه غير أحد تلاميذه، وعلى هذا التلميذ قرأ شيخنا العلامة الشيخ حسن الطويل خلاصة الحساب لبهاء الدين العاملي.

ثم لما كانت ولاية إسماعيل باشا على مصر أجرى على المترجم عشرة دنائير في الشهر تصرف له من الحكومة، واستصوب أبو بكر راتب باشا ناظر الأوقاف إذ ذاك انتقال الشيخ إلى مدرسة محمد بك أبي الذهب التي بجوار الأزهر، فانتقل إليها وسكن بها في قاعة الشيخ الصبان الذي كان مؤقتًا لهذه المدرسة، وأقام المترجم بها نحو أربع سنوات، ثم وافاه أجله المحتوم في ربيع الثاني سنة ١٢٨٧، وقد جاوز التسعين، ودفن ببستان العلماء في مقبرة المجاورين، ومات من غير عقب؛ لأنه لم يتزوج في حياته.

وكان ربعة، أبيض اللون واللحية كثها، كبير الهامة، بدينًا مهيبًا إذا سار في الطريق قام له الناس من يعرفه ومن لا يعرفه، حليمًا متواضعًا، عفيف النفس زاهدًا، مع كمال عقل وحسن فراسة، وكانت له اليد الطولى في كافة العلوم، وكان الشيخ مصطفى العروسي شيخ الأزهر يعرف له قدره، ويزوره بمدرسة محمد بك. ولما مات الشيخ الباجوري وبقي الأزهر بلا شيخ اكتفاء بالوكلاء، ولهج الناس بضرورة إقامة شيخ، قال الشيخ الأشموني: لو استشرت في ذلك ما رضيت بسوى الشيخ محمد أكرم، فإنه رجل له جانب مع الله. وبلغ المترجم قوله فتبسم وقال: ما لي وأزهرهم، لو عرضوا عليّ ولاية مصر ما قبلتها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

## ترجمة الشيخ محمد الأشموني الشافعي

أصله من أشمون جريس، قرية من أعمال المنوفية، وقد أخبر أنه من نسل أبي مدين التلمساني، ولد سنة ١٢١٨، وحضر إلى الأزهر لطلب العلم، فتلقى عن القويسني، والبولاقي، والفضالي، والأمير، والباجوري، والمرصفي وغيره. وكان أكثر حضوره على البولاقي، والباجوري، واشتهر بالذكاء، وجودة التعليق، وإتقان التحصيل، إلى أن تأهل للتدريس فدرس الكتب المتداولة بالأزهر من صغيرة وكبيرة، وقرأ المطول، وجمع الجوامع، وكتب التفسير، والحديث، والعقائد وغيرها مرات بعدوبة منطق، وحسن إلقاء، ولم يؤلف كتباً؛ وإنما كتب عنه بعض الطلبة تقييدات عن قراءته للعقائد النسفية، وكذلك قيدوا عنه نحو ثلاثين كراسة حال قراءته لمختصر السعد، وأخذ عنه كثيرون من كبار علماء الأزهر، وعمر عمراً طويلاً حتى ألحق الأجداد بالأحفاد، وصار جميع من بالأزهر إماماً تلاميذه أو ممن في طبقتهم، وروي عنه أن الشيخ محمد الإنبائي الذي كان شيخاً على الأزهر كان ممن تلقى عنه، إلا أن الشيخ الإنبائي كان ينكر ذلك.

ولم يعقب المترجم لأنه لم يتزوج قط، وكان القائم بخدمته في داره أخت له وجارية سوداء، وعبد اسمه محبوب تبناه وزوجه من الجارية، وفتح له حانوتاً بالتريعة وصيره من التجار، ثم وقف على الثلاثة داره التي كان يسكنها بالباطنية بالقرب من الأزهر.

ولم ينقطع عن التدريس والإفادة إلا قبل موته ببضع سنوات لضعف أصابه من الكبر، وأبطل حركته في آخر أيامه. وكانت وفاته، ليلة الجمعة رابع ذي القعدة سنة ١٣٢١ عن مائة سنة وثلث سنوات، وأمر الخديو بتجهيزه من الأوقاف الخيرية، وأطلقوا منادين في الطرق للأنباء بوفاته، فساروا مثنى رافعين أصواتهم بالنعي، واجتمع في صبيحة الوفاة الألوف من صنوف الناس لتشيع جنازته. قيل: إنهم بلغوا نحو أربعين ألفاً، وحضر أيضاً الوزير المنبهي المراكشي وزير الحرب بالمغرب، وكان ماراً بمصر للحج وأحب أن تكون نفقة التجهيز والمآتم من عنده فأخبروه بأمر الخديو، وتقدم شيخ الأزهر السيد على البلاوي للصلاة عليه بالأزهر، وتلوا قبيل الصلاة مرثية من نظم الشيخ إبراهيم راضي مطلعها:

لا قلب للإسلام غير حزين      فالיום فيه انهى ركن السدين

ثم خرجوا بالجنازة إلى القرافة ودفنوه في مقبرة الشيخ الإنبائي.

وكان رحمه الله أنيس المحضر، كثير الدعابة والمزاح مع الطلبة، شديد الورع، متصفاً بالزهد والتقشف، وقلة الاحتفال برفاهة العيش، إذا سار في الطريق توكأ على عصاه بيد ووضع الأخرى على كتف من يساره، لا سيما بعد علو السن وضعف القوة. حضر مرة احتفالاً مما يقام لكسر السد أو المولد النبوي، ورموا بالسهم النارية كعادتهم، فتجاوز سهم منها مداه ووقع على الحاضرين، فأصاب المترجم في إحدى عينيه وذهب بها، فرق له الخديو إذ ذلك، ورتب له راتباً شهرياً علاوة على راتب الأزهر رحمه الله تعالى.

## ترجمة الغازي أحمد مختار باشا

ولد في بروسة من مدائن آسيا الصغرى شهر (سبتمبر سنة ١٨٣٧) وقدم الأستانة صغيرًا، فدخل المكتب الحربي العالي فنبغ من بين أقرانه، ولم يخرج منه حتى نال رتبة قائم مقام وحضر حرب القرم، ثم انتظم في عداد أركان حرب السردار الأكرم عمر باشا حين حمل على الجبل الأسود سنة ١٨٦٠ وامتاز بالبسالة خصوصًا في مضائق اوستروك، وكوفئ وقتئذ بترقية رتبته، ثم ما لبث أن عاد إلى الأستانة عقب إبرام الصلح، فجعل أستاذًا في المكتب الحربي. وفي سنة ١٨٦٦ جعله السلطان عبد العزيز مربيًا لنجده البكر يوسف أفندي عز الدين، فرافقه إلى إيطاليا وفرنسا، وإنكلترا، وألمانيا، والنمسا، فنال في أثناء ذلك وسام (اللجيون دونور) وغيره من فرنسا وسواها، وعاد إلى الأستانة سنة ١٨٦٧ فجعل مأمورًا لتحديد التخوم بين بلاد الدولة والجبل الأسود، فرجحت بسببه كفة الأولى إذ أبقى في حوزتها عدة مواقع حربية مهمة، وقوبل عمله هذا بترقيته لرتبة أمير اللواء وجعله عضوًا في المجلس الحربي، وفي ختام سنة ١٨٧٠ أرسل مع ضباط الجيش المرسل إلى اليمن تحت إمرة رديف باشا، فاستولى على مدينة يدي، ونال رتبة فريق، ثم أقيم مقام رديف باشا في القيادة الكبرى لنقله واليًا على الحجاز، فتمكن من الفوز على أهل اليمن، فرقي إلى رتبة مشير وجعل واليًا على اليمن، ثم لما رجع إلى الأستانة أقيم وزيرًا لوزارة النافعة فاستقال منها، ثم جعل واليًا لكريد، ثم مشيرًا للفيلق الثاني في شوملة سنة ١٨٧٣، ثم مشيرًا للفيلق الرابع في

أرزروم سنة ١٨٧٤، ثم قائدًا لجيش الهرسك بدلًا من رءوف باشا سنة ١٨٧٥ فحصن مواقعها، وقاوم الثورة حتى عقدت الهدنة في ختام سنة ١٨٧٦ فأعيد إلى كريد واليًا عليها، ولكنه لم يبق بها شهرًا واحدًا حتى أمر بالذهاب إلى أرزروم لقيادة الفيلق الرابع وحماية المواقع العثمانية عند حدود القوقاز. واشتهر بالفوز في الوقائع الحربية مع روسيا في جهة قرص، وألكسندر، ويول وغيرها، خصوصًا بمعسكر جديكلر في شهر أغسطس سنة ١٨٧٧ حتى استحق لقب الغازي، ولما قطع الغراندوق ميخائيل الصلات بين فرقته وسائر الجيوش العثمانية تمكن هو من النجاة، ثم استدعى إلى الآستانة فجعل ناظرًا (للطوبخانة) وكان ذلك في شهر أبريل سنة ١٨٧٨، وبعد ذلك عين قائدًا لجيش يانيا، ثم واليًا لكريد مرة ثالثة في ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ فتمكن من توطيد الأمن بها وألف بين أهلها المسلمين والمسيحيين، فكتبوا عريضة رفعوها للباب العالي في شهر أكتوبر سنة ١٨٧٨ بالثناء عليه. وبعد ذلك أرسل إلى ألبانيا لتنفيذ العهدة البرلينية المتعلقة بها، فدوخ الثائرين، وعاد بعد حين إلى الآستانة ولبث يقوم فيها بالمهام الجسيمة في الجيش، حتى أرسل إلى مصر معتمدًا عاليًا سنة<sup>(١)</sup>.

(١) ترك في الأصل بياض لتعين السنة.